

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفصل الأول

تمهيد

توالت على العالم الأيام ، ومرت به السنون والأعوام ، حتى صار في وضعه الحالى ونظامه الاقتصادى القائم . ولن تقف به عجلة التقدم ، ولن تستقر كثيراً ولن تلبث طويلاً ، حتى تخطو خطوة أو خطوات : سنة التطور والارتقاء . وما كان النظام الاقتصادى الحالى إلا صفحة من صفحات تاريخ العالم الاقتصادى وطوراً من أطواره ، تلك الأطوار التى مر العالم بها متعاقبة متداخلة بعضها فى بعض .

وصحب تلك الأدوار فى ظهورها الكثير من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية التى زادت خطورتها كلما زادت الحياة الاقتصادية تعقيداً . وتعددت عمليات الإنتاج وتباعدت مراحلها . ولعل أهم تلك المشكلات وأكثرها ظهوراً وأبعدها أثراً وأعظمها خطراً على الكيان الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والدولى مشكلة البطالة .

وإن لمحة خاطفة إلى الأدوار التى مر بها الإنتاج لترينا أن الإنسان بدأ يستهلك ما ينتج ، ويعتمد فى سد حاجاته الضرورية وإشباع رغباته الأولية على ما كانت تجود به الطبيعة عليه من خيرات دون تعديل منه أو تهذيب اللهم إلا القليل اليسير ؛ وما كان ذلك ليتطلب منه جهداً أو مشقة عظيمة ، إذ لم تكن حاجاته متعددة ، ولم تكن رغباته متزايدة ، ولم يكن هنالك ذلك التزاحم البشرى العجيب . ولكن الإنسان مدنى بطبعه ، اجتماعى بفريزته ؛ فسرعان ما انضم

إلى غيره وأصبح عضواً عاملاً في جماعة تكفي نفسها بنفسها، ويتعاون في الإنتاج أفرادها، ويشترك في الاستهلاك أعضاؤها. كان لكل عمله الذي يؤديه، وكان له من إنتاج الجماعة ما يكفيه. وما لبثت تلك الجماعات التي يجمعها صعيد واحد، وتربطها روابط الدين والعرف والعادات، أن تمثلت في ذلك الشكل الأعلى للجماعات البشرية: ألا وهو الدولة.

كانت الصناعة الرئيسية حينئذ هي الزراعة، وظهرت المدن في تلك الأمصار الزراعية التي جادت عليها الطبيعة بالخصب والثمار؛ لكن الذين استأثروا بخيرات الأرض قلة: هم من الملاك الذين كانوا يملكون الأرض ومن عليها وما عليها، وعلى العامل أن يؤدي ما يعرض عليه المالك من عمل، وليس له من حقوق على المالك إلا الضروري من المأوى والغذاء والكساء. كان طبيعياً ألا يدوم هذا الدور الذي كان طابعه الظلم، وسرعان ما أعلن العالم حربه الشعواء على نظام العبودية والاسترقاق، وحتى تمتع العامل بحريته الشخصية وأصبح حراً في اختيار العمل الذي يناسبه ويرضيه، إلا أنها كانت حرية الرجل الضعيف الذي لا حول له ولا قوة، لأنه لم يستطع أن يتخلص نهائياً من حكم مستعبدية من قبل وهم الملاك، وواجهته مشكلة طوحت بسعادته، إذ زاد عدد العمال زيادة أربت على حاجة الزراعة، ولم تنسج الصناعات الضيقة النطاق وقتئذ لذلك العدد المتزايد، ولم تتمكن من استيعابه، فانتفضت أجورهم وساءت أحوالهم، وتعطل فريق منهم. إلا أن المصانع اليدوية التي ظهرت بعدئذ أقبل أربابها على استخدام عدد كبير من أولئك الذين ضاقت بهم الزراعة ذرعاً، ومن ثم لم يكن للبطالة حديثها، ولم يكن لتلك المشكلة خطورتها. وانتصف القرن الثامن عشر، وظهرت المصانع الآلية، وتتابع ظهور المخترعات واستخدام البخار والكهرباء، فأحدث ذلك انقلاباً كبيراً في الحياة الاقتصادية، وسبب إقبال أصحاب المصانع على

استخدام العمال ارتفاع أجورهم ، فأغرام ذلك الارتفاع بهجر الزراعة ، ووجدوا الفرصة سانحة للتخلص من الملاك الذين طالما ساموهم الخسف ، وجرعواهم كؤوس الهوان ؛ فهرعوا إلى المدن الصناعية تجذبهم أجورها العالية ، ونزحوا إليها من كل حدب . وكانت النتيجة الحتمية لذلك أن أقفر الريف من العمال وزخرت بهم المدن فاستهدفوا للكثير من المساوىء الخلقية ، والاجتماعية ، وظل الريف على حاله يغذى تلك المدن بخيرة بنيه حتى فقد بهجته ونشاطه وساءت حال الزراعة فيه .

دارت الأيام دورتها ، وأعاد التاريخ نفسه في الصناعة ، فازداد عدد المشتغلين بها والراغبين فيها ؛ فانخفضت أجورهم ولم تراع ظروف استخدامهم وحلت الآلات محل العمال في كثير من الصناعات ، وازداد حال العمال سوءاً وتعطل منهم فريق كبير ، وقابل العمال إحلال الآلات محلهم بمقاومة عنيفة واستياء شديد في أول الأمر ، إذ حسبوها القاضية على أرزاقهم وسبل عيشتهم ، ونال مخترعوها من أذام الشيء الكثير ، وتعددت حوادث الإضراب من جانب العمال عليهم يرغبون أرباب الأعمال على تحسين أحوالهم ورفع أجورهم . ولم يجد ذلك نفعاً فلم تكن لديهم فضلة من المال تعينهم في ذلك النضال ؛ هذا إلى أنهم كانوا يمثلون البؤس وسوء الحال ، وكانت مساكنهم غير صحية تكتظ غرفها بمشرات الأفراد الذين يتناوبون فترات النوم والراحة ، وكانت الأغلبية العظمى لا تجد غطاء يقيها قارس البرد وزمهرير الشتاء . على أنه كانت هنالك جماعة من العمال المتعطلين على استعداد دائم لأن يشتغلوا مكان المضرين ويحلوا محلهم بأي أجر يعرض عليهم يسكون به رمقهم ويقضون به الضرورى من حاجاتهم . وكم صور الكتاب والقصصيون بؤس العمال وشقائهم في تلك الفترة من الزمان وما غالوا في ذلك وما تجنوا على الحقيقة وإنما كانوا يصفون واقع الحال .

وقد صور القصصى الانجليزى « جالزورنى Galsworthy » في روايته « Strife »

بؤس العمال وشقاءهم وتعسف أرباب الأعمال وجبروتهم وذلك النضال الذي اتخذ أروع صورته ، أجمل تصوير وأبدعه . وصور الشاعر « جولدميث Goldsmith » ، في قصيدته عن القرية المهجورة ، حال الريف وقتئذ : فقد خلت القرى الهادئة من جمهرة سكانها الذين نزحوا جماعات إلى المدن . وقد حاول العمال جاهدين أن يستميلوا عطف الحكومة كي تتدخل لمحايتهم من أرباب الأعمال وأصحاب رؤوس الأموال وأن تنقذهم مما هم فيه ، ولكن صيحاتهم كانت تذهب أدراج الرياح ولم تكن الحكومة لتعيرها أذناً مصغية ؛ والمذهب الحرفي أوجه ، ونظريات « آدم سميث » والاقتصاديين الأحرار ما زالت تشغل الأذهان وتملك على الحكام تفكيرهم وتسيطر عليهم في سياستهم الاقتصادية والاجتماعية على السواء . وكان كل تدخل من جانبها على حد الفكر السائد يتعارض والصلاح العام ، بل يزيد الحال سوءاً على سوء . إلا أن العمال وأرباب الأعمال مسوقون — وهم في سبيل تحقيق مصالحهم الشخصية — إلى تحقيق الصالح العام وتحسين أحوالهم ورفع أجورهم ، تدفعهم إلى ذلك دفعا يد شيخ الاقتصاديين الخفية . ولم يكن إضراب العمال مستساغاً أو مقبولاً في ذلك الحين ، بل إنه باء بسخط شديد ؛ وتوالت نظريات الاقتصاديين ذات الطابع المتشائم : فنظرية السكان « لمانس » ، وقانون الأجر الحديدى « الاسال » ونظرية مخصص الأجور « لجون ستيوارت ميل » ما كانت لتوحى جميعها بأمل للعمال جديد في تحسين أحوالهم ورفع أجورهم .

إلا أن العمال ما وهنوا ، وما لانوا ، وما استكانوا ، وإن لاقوا في ذلك عناء شديداً وضرراً عظيماً . فقد عملوا على تنظيم صفوفهم وتوحيد جهودهم وجمع كلمتهم بتكوين النقابات مجمع عصبتهم ، والتي تلم شملهم ، وتصون حقوقهم ، وتدافع عن كياناتهم ؛ لوقد استهدفت اتحادات العمال في بداية أمرها لعنت الحكام وتعسفهم ومحاربتهم ، وكثيراً ما تأخر اعتراف الحكومات بها ، وسنت القوانين لتحول

دون قيامها ، وحرّم على العمال الانخراط في سلكها باعتبارها جماعات تأمر بحشى
منها على النظام العام . ولكن العمال جاهدوا في سبيل الاعتراف بها أيما جهاد ،
حتى تم لهم بعدئذ ما أرادوا بفضل جماعة من المصلحين الاجتماعيين أمثال
« فرانسيس بلاس » و « يوسف هيوم » . ونظمت اتّحادات العمال هذه ، حركات
الإضراب التي أصبحت في هذه المرة لها خطرها ولها أثرها ، وكانت تمد المضربين
بأمان فكانوا في نضالهم هذه المرة أشد قوة وأكثر احتمالا وأطول مدى ، واتخذ
النضال بين العمال وأرباب الأعمال أعنف صورة في ذلك الوقت ، ووجد العمال
في تلك الاتّحادات التي زاد عددها وعظم شأنها خير قاض على مساوى النظام
الرأسمالى . وتمكنت تلك الاتّحادات عن طريق مساومتها الإجماعية من إيجاد
حد أدنى للأجور ، وتحديد ساعات العمل وتحسين ظروفه ؛ وعملت على إدخال
« نظم التأمين » المختلفة فأسهمت بنصيب كبير في رفع مستوى الحياة الاجتماعية
لأفرادها ، وتعليم أبنائها ، والسهر على مصالح أعضائها ، وأصبح لها شأن كبير في
توجيه الحياة السياسية في الكثير من البلدان وإدارة دفة الحكم فيها . وقد نجحت
تلك الاتّحادات إلى حد كبير في تحقيق أغراضها ، إلا أنها لم تنجح في حق تقرير
العمل لكل فرد في الكثير من البلدان والقضاء على ظاهرة البطالة التي تردى عدد
كثير من العمال في شرورها ومهاويتها مع أنها الشبح الخيف الذي يززع
الرأسمالية ، ويقضى عليها . ولعل المستقبل القريب كفيل بتحقيق آمال العمال في
القضاء على هذا الداء الويل .

وفي الوقت الذي نمت فيه اتّحادات العمال وعظم شأنها كانت تتجاذب الحياة
الاقتصادية مؤثرات شديدة ، تناولت نظم الإنتاج بالتغيير والتبديل وزادت الهوة
بين المنتج والمستهلك اتساعاً ، وأصبحت عمليات الإنتاج أكثر طولاً وتعقيداً ،
واستخدمت المستحدثات الآلية على نطاق واسع ، وبشكل كبير ، وأقبل المنتجون

على سد حاجات ذلك العدد الكبير من سكان العالم المطرد الزيادة ، وعملوا على إشباع رغباته التي تنوعت وتعددت بإنتاج الكثير من السلع والخدمات ، وازدادت نسبة رأس المال الثابت زيادة كبيرة ، ولاقى المنتجون صعوبات كبيرة في سبيل تحقيق التوازن ما بين المعروض من السلع والمطلوب منها ، بل لم يكن في وسع هؤلاء المنتجين في الكثير من البلدان أن يحدوا من كمية إنتاجهم إبان الكساد العالمي الكبير الذي حل بالعالم منذ سنة ١٩٢٩ مخافة تعرضهم للكثير من الخسائر نتيجة التزايد الكبير للنفقات الثابتة في الصناعة ؛ وبذلك أضحت الأزمات الاقتصادية أكثر خطورة وعنفاً مما كانت عليه من قبل ، وصارت أشد قسوة في تشريدها أعداد كبيرة من العمال .

وهكذا في الوقت الذي نعمت فيه المجتمعات بآثار التقدم الصناعي وخيراته ، وبتلك الوفرة في السلع والخدمات ، عانت ما عانت من تزايد عدد المتعطلين وانهبان مستوى معيشتهم ، وأصبح هؤلاء المتعطلون شبيحاً مخيفاً يهدد الدول بالانقلاب الاجتماعي والثورة على النظم السياسية القائمة ، ومن ثم تعمل الحكومات جاهدة للقضاء على مشكلة المتعطلين متعاونة في بحث هذا الداء الوييل وهو البطالة كي لا تعصف أعاصيرها الهوجاء بنظمهم وتودي بمدنياتهم .

والاقتصاديون عليهم — وعليهم وحدهم — القيام بذلك العبء من البحث والدرس كي يتمكنوا من تشخيص الداء فيصلوا إلى نافع الدواء . وهذا ما عينناه من بحثنا الذي قدمنا له بهذه اللوحة الخاطفة عن الحياة الاقتصادية والذي نسأل الله فيه التوفيق والسداد لما فيه الخير للجميع .